٥ - مجتمع القاهرة ١٩١٧ - ١٩٤٤
كما صورته ثلاثية نجيب محفوظ

تعدد الجوانب فى كتابات نجيب محفوظ دفعت بالعديد من المتخصصين خصوصا الأدباء والفنانين والصحفيين إلى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها ، وإبداء الرأى ووجهات النظر حولها .

أما عن المؤرخين وباحثى التاريخ فإنهم لم يطرقوا باب هذه الكتابات بالدراسة ، وإن كان معظمهم قد قرأها ، وربما كان ذلك لتشككهم فى أن المادة الروائية تصلح أساسا لكتابة التاريخ .

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحربين ، وتسجيله لواقع البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ، ثم محاولة الاجابة على التساؤلات الاتية :

هل يمكن أن يصلح الأدب الروائى مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ ؟ وما هى الخيوط التى يمكن أن يتلمسها المؤرخ من وصف أديب للمجتمع الذى يكتب عنه ؟ وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة رواياته على الدراسات التاريخية الجادة ؟ وهل كان نجيب محفوظ أديبا لطبقة بعينها ؟ أم كان أديبا لكل طبقات المجتمع ؟ وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيته حلولا للمشكلات التى طرحها أم تعرض لها دون أن يقدم لها حلولا ؟

وقبل أن نتعرض لاطار الثلاثية الاجتماعى والسياسى ينبغى لنا أن نتعرف على كاتبها .

ولد نجيب محفوظ فى حى الحسين أكثر أحياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢ ، من أسرة متوسطة لا تتمتع بشىء من الثراء ، ولم يكن لها سوى الدخل المحدود الذى يعود على ربها من عمله ، وعايش هذه

البيئة ، وعاصر مشاكلها ، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحل حياته الأولى ، ودرس الفلسفة فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة ، فأكثر من الاطلاع على انتاج رواد الأدب فى مصر ، وتأثر بشكل خاص بكتابات سلامة موسى ، ثم واصل قراءاته للآداب الأجنبية ، واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة [١] . مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته الفنية التى أعانته على كتابة الرواية بالمستوى الرفيع الذى بلغته ، وشهد له به معظم نقاد الأدب العربى الحديث وغيرهم . يضاف إلى ذلك أنه ظل مغرما بقراءة التاريخ المصرى ، والاستعانة به فى كتابة رواياته ، وقد يرجع ذلك إلى تأثره بالتيار القومى الذى اتجه المثقفون المصريون إلى احيائه كرد فعل لتغلغل الثقافة الأوربية والاحتلال البريطانى ، وربما يرجع أيضا إلى أنه عاصر فى فترة شبابه الاكتشافات الهامة للعديد من الآثار الفرعونية .

والثلاثية ـ بأجزائها الثلاثة ـ انتهى نجيب محفوظ من كتابتها قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شهور ، وكانت حين دفع بها إلى المطبعة فى المرة الأولى عبارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد ، غير أن اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها إلى ثلاثة أجزاء .

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية [٢] .

---

(١) محمد صالح الشنطى : الرواية العربية فى مصر من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٢٣ ، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للاستاذ أحمد عباس صالح ، تحت عنوان « فى الرواية العربية » .

(٢) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ . رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ٦ .

وعن الفترة الزمنية التى شملتها أجزاء الثلاثية يتضح أنها شملت ثلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها من أكتوبر ١٩١٧ إلى ابريل ١٩١٩ ، ورواية قصر الشوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ إلى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . أما عن رواية السكرية فقد جرت أحداثها ما بين يناير ١٩٣٥ إلى صيف ١٩٤٤ .

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت تلك الأحداث إبان طفولته ، وعلى أقوال شهود عيان هذه الفترات ، هذا بالاضافة إلى بعض الصحف (١) .

والثلاثية فى مجموعها تنتمى إلى أدب القضايا الفكرية الذى يبلور قضية أو أزمة معينة ، يقوم بتجسيدها أكثر مما يستهدف تحليلها (٢) . وتستند عبر السياق على أدلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنايا الرواية وتؤدى وظيفتها ، وتقحم نفسها على اهتمام القارىء ، دون أن تمنعه من مواصلة قراءته الأدبية .

ومحور الثلاثية يدور حول أسرة مصرية من طبقة محددة تتكون من ستة أفراد عاشت فى أحد أحياء القاهرة القديمة المتأخمة لمسجد سيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين ، وقصر الشوق ، وحارة السكرية ، عبر ثلاثة أجيال من الآباء والأبناء والأحفاد ، لكل منهم فكره الخاص ورؤيته للمستقبل .

وللثلاثية وجهان : أحدهما يحمل طابعا اجتماعيا تمثل فى تصوير الواقع الاجتماعى للقاهرة فى فترة ما بين الحربين من خلال شريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة فى أسرة أحد التجار التى يتوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمرد الخفى عليها والتطلع إلى الحرية فى مختلف أشكالها من ناحية أخرى .

---

(١) نفسه .

(٢) غالى شكرى : المنتمى ، دراسة فى أدب نجيب محفوظ ، القاهرة، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ٦٤ .

أما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للأحداث السياسية الكبرى فى مصر من جهة ، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ وأهدافها من جهة أخرى .

وليس معنى ذلك أن وجهى الثلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان ، بل كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس .

وعن القضايا الاجتماعية التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته فقد هدف منها إلى رصد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه لحياة أسرة التاجر أحمد عبد الجواد اليومية ، وتفاعلها مع مجتمعها الصغير من ناحية ، ومع الأحداث السياسية التى مرت بها مصر بين الحربين من ناحية أخرى . كما صور القضايا التى كانت تشغل اهتمام الطبقة الوسطى ، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها .

فقد تتبع نجيب محفوظ هذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى الملىء بالمتناقضات ، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشاربها ، ومحاولات الكبار والصغار التمرد عليها ، ولكن بطريق خفى ، فقدم القاهرة المعزية ، وكأنها عالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحاول فرض نفسها على ساكنيها ، وتحدد سلوكهم ، كما صور لنا نماذج من التفكير رسمت صورا للقديم والجديد ، والتقليد والتجديد ، والجمود والتحرر . والتخلف والتقدم ، وكان الصراع بين هذه الأطراف هو أحد سمات الحياة والحركة فى الثلاثية .

وعن شخصيات الثلاثية فقد ربطها الكاتب بمحيطها الاجتماعى ، وبمنظور صور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى أعماق النفس البشرية من خير وشر ، ومن أحاسيس ومشاعر متضاربة ، كما صور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد

من جهة ، وعوامل المحافظة على القديم من جهة أخرى ، فرب الأسرة « سى السيد » كان مثالا للرجل الشرقى الذى يدير بيته بطريقة استبدادية ، بينما فى خارج منزله يحيا حياة مختلفة ، سواء فى دكانه من خلال عالم التجارة ، أو فى مجالس الأنس والسهر والخليلات والعوالم التى يحياها ليلا ، ورغم ذلك فهو يحرص على أن يمسك بزمام أسرته يحركها كما يشاء ، ويلقى الاحترام الكامل من زوجته وأولاده ، ويحاول أن يظهر أمامهم بمظهر الجد والصرامة والاستقامة ، بالرغم من أنه كان صورة للعبث والمجون خارج بيته ، لدرجة أن أبناءه لم يتعرفوا على وجهه الباسم إلا بعد أن دخل أحدهم عليه دكانه فجأة فرآه يمازح أحد أصدقائه ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكشف أحد الأبناء النقاب عن الجانب الخفى من حياة أبيه حين رآه صدفة من ثقب الباب فى بيت زبيدة العالمة ، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء ، فتتغير نظرته إلى والده .

وأمينة الزوجة كانت مثالا للمرأة المحجبة المطيعة لزوجها ، والتى تحبه ، وتعتبر نفسها خادمة له ، وتخشى غضبه ، وتحاول تجنب أى مخالفة لرأيه ، ومع ذلك يتغلب عليها الجانب الدينى ، وتدفعها نوازع الايمان والشوق لرؤية مسجد الحسين إلى القيام بمغامرة خطيرة وخيمة العواقب بزيارتها الحذرة له ، دون أوامر من زوجها مما كلفها الكثير [(١)] ، حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت إلى بيت أمها بالخرنفش .

وهكذا صور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس أمينة وبين تمسكها بالتقاليد التى تقضى بطاعة أوامر زوجها ، وتغلب النزعة الدينية على التمسك بالتقاليد .

وعن بنات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، القاهرة ، مكتبة مصر ، د.ت ، ص ١٢٨-١٢٩ .

المحافظات على التقاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الأبنة من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها ، ولا من بيت زوجها إلا إلى القبر ، ومع ذلك كن يحاولن اختلاس النظر من حين إلى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشبان .

كما تعرض نجيب محفوظ من خلال هذه الأسرة إلى أحد التقاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية ، وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى ، فصور البنت الكبرى فى غير جمال أختها الصغرى الشقراء ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تقدم الخطاب لخطبة الصغرى ، بينما لم يتقدم للكبرى أحد منهم ، مما أدى إلى تعطيل أمر زواج الصغرى وخيبة أملها رغم حبها لضابط البوليس التى كانت تراه ويراها من المشربية ، كما أدى أيضاً إلى اصابة البنت الكبرى باضطراب فى سلوكها وتعاملها مع أفراد أسرتها ، مما أثر فى مجرى حياتها لعدم تقدم أحد لخطبتها ولاحساسها بابتعاد راغبى الزواج عنها .

أما عن أبناء أسرة عبد الجواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شأن أبناء معظم الأسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب ، رغم أن الأرضية الاجتماعية التى أنبتتهم واحدة ، فكان منهم الكسول الخامل المحب للهو ، الذى يقنع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية يذهب إليه مكرها ، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه أثناء وقوفه عند بائع البسبوسة ، ويشارك فى كل شىء مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل ، ومنهم الجاد الذى درس الحقوق بشغف ، وتمنى أن يبلغ من التعليم أحسنه ، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة له تختفى أمامها كل مغريات الحياة ، ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران ، فيقابلها فوق السطوح ، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما ، ومنهم الصبى الصغير الذى يذهب إلى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق أذنه من أمه فى المنزل ، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر

الأخوان المسلمين ، ويجد فيه الطريق للاصلاح ، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل إلى الحياة الأفضل .

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على أبناء الأسرة ، فيصور ياسين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة ، وإن كانت بصورة مختلفة ، فازدواجية الأب كانت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت ، وحياة اللهو خارجه ، أما ازدواجية ياسين فبرزت فى حرصه على مظهره وأناقته ، رغم اهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا (١) . بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره ، وقد ورث عن أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات ، وسرعة الملل من الزواج ، فبعد أن زوجه والده من زينب أبنة صديقه محمد رفعت ، سئمها قبلما ينتهى شهر العسل ، ورجع إلى خليلاته مثل نور الجارية وغيرها ، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا ، ورغم فداحة هذه الخيبة التى منى بها ياسين فى حياته الزوجية ، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة ، فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزوجة المستقر والملاذ والرعاية ، ومن هنا فإنه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا .

ومن خلال هذه الأسرة أيضاً يتطرق نجيب محفوظ إلى عادة الحسد السائدة بين المصريين ، وبخاصة إذا كان الحاسد ليس له ولد ، والمحسود كثير الأولاد ، فصور اصطحاب أحمد عبد الجواد لأبنائه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة لالتماس البركة ، وخشية الأم من أن تصيب عين الحسود أحدا من أبنائها عند زيارتهم لمسجد الحسين بصحبة والدهم ، وحيرتها بين استحسان زيارة أبنائها للمسجد من ناحية ، وخشيتها من أن يحسدهم حاسد ، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحية أخرى .

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٤٠ .

وعن الحب بين الرجل والمرأة ، وعدم تأثيره القوى فى هز الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع أشارت السكرية إلى وقوع أحد أفراد أسرة سى السيد فى حب فتاة ارستقراطية تفوقه مالا وجاها ، ولكنها رفضت الزواج منه لأن مرتبه يقل عن خمسين جنيها ، رغم علاقة الحب الملتهبة من جانبه تجاهها ، وفضلت عليه ابن المستشار الذى يتفق وطبقتها مما جعله يعترف « بأن القلب فى أهوائه لا يعرف المبادىء ، وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الارستقراطى » ، يضاف إلى ذلك أن هذا الفارق كان له أثره بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن أبنة عامل المطبعة ، فرغم حبه الشديد لها فإن أسرته لم توافق على زواجه منها بسهولة ، كما أنها رفضت زواج أخيه من أبنة زنوبة العوادة لعدم أهلية هذا الزواج .

ورغم هذ التصوير فى تأثير الفوارق بين الطبقات بحيث يكون لكل طبقة مكانتها فى الزواج فإنه من غير المنطقى اطلاق هذا القول على علاته ، ففوارق الطبقة وفوارق السن أيضاً لم تكن وحدها هى التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة خصوصا إذا تواجد حب متبادل بين رجل وأمرأة ، فقد كانت التجربة العاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طرفين متناقضين تماما ، فالجانب العاطفى عند كمال تمثل فى الوفاء والعطاء والعشق الروحى (١) . أما عايدة فقد كان المطلب الأول عندها هو شغفها بأن تكون فتاة أحلام كل ما يتصل بها من الشباب ، وشتان ما بين فكر كل منهما (٢) .

بهذا التناقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه ، صور نجيب محفوظ الانسان المصرى تصويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه : « إن نجيب محفوظ « أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يطلع قارئه على أسرارها ودقائقها » (٣) .

---

(١) نجيب محفوظ : قصر الشوق ، ص ٢٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٥ .

(٣) الجمهورية : فى ٦ فبراير ١٩٥٧ ، تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

وحين نرجع إلى ما كتبه نجيب محفوظ عن الأسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على أسرته ، وخضوع المرأة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخالفة أمره ، وارتدائها الحجاب ، يتضح أنه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حول ضرورة تغيير وضع المرأة المصرية ، ودعوته إلى السفور ، وبالرغم من الأفكار التى وردت إلى مصر حول أن الحرية الشخصية أصبحت حقا لكل انسان ذكرا كان أو أنثى فإن الطبقة المصرية الوسطى كانت بصفة خاصة هى المحافظة على التقاليد ، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب الماضى ، وتخشى الخروج عليه ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، فمن خلال المعركة بين القديم والجديد ، والصراع بين التراث والموروث ، والنقلة الحضارية التى حدثت فى مصر ، نجد أن أسرة أحمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنها فى بين القصرين ، ففى بين القصرين كانت الشمس والأجرام السماوية ، وليست الساعة هى التى تمثل المواقيت بالنسبة لهذه الأسرة ، فالفجر يعنى استمرار دقات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا ، كما يعنى استعداد الزوجة لاعداد فطور للأسرة ، والصباح يعنى استعداد الأسرة لاستقبال يوم جديد ، ومغيب الشمس يعنى الخلود إلى الراحة وجلوس الأسرة فى مجلس القهوة [١] .

أما فى السكرية فقد خطت الأسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثة فدخلت الكهرباء منزلها ، وسمع المذياع من داخل جدرانها [٢] ، وانشئت الجامعة ، والتحق بها أحفاد أسرة عبد الجواد ، يضاف إلى ذلك أن السيد نفسه أفاد من أثر هذه المدنية أثناء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك .

---

(١) سيزا أحمد قاسم : الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٦٠ ، دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، نوقشت بآداب القاهرة عام ١٩٧٨ ، ص ٧٢ .

(٢) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ٨٣ .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفوظ التى رصدها بوعى وبنضج وحساسية شديدة عكست واقع مجتمعنا المتناقض ، وكانت « احياء لدنيا كاملة من الناس بأفكارها وأرائها واحساساتها ، وتحيزاتها ومغامراتها » (١) . ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ أن صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين الى أن انتهى بها فى السكرية ، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة ، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة أخرى ، ولكن هل يعنى هذا أن أدب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين ؟! .

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس ، ولا بدقة التحليل العلمى ، شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى ، بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، فنجيب محفوظ أتخذ من الأحداث الاجتماعية مادة وصل عن طريقها إلى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل ما زلنا نعانى من بعضها حتى الآن . كما يلاحظ أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل ، ولم يرسم طريقا للخلاص منها ، وإنما أشار بأسلوبه الروائى إلى مواطن الضعف ، ومكمن المفاسد وأبان العلة وشخص الداء دون أن يوضح ما هو الدواء ، بل كان هدفه هو ايقاظ الرأى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الأفراد وإلهاب شعورهم واذكاء حماسهم نحو ايجاد الطرق الموصلة للاصلاح ، خصوصا وأن التنبيه إلى الأحوال الاجتماعية غير المتوازنة يهدف إلى وأد الشلل الفكرى فى الأمة ، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من أجل اعادة التوازن بعد فهم الناس لأخطائهم .

---

(١) على الراعى : دراسات فى الرواية المصرية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ص ٢٢٠ .

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح أنه سار جنبا إلى جنب مع الجانب الاجتماعى ، وإن تعارض معه أحيانا وتشابك معه أحيانا أخرى ، فمن خلال أسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل اعلان الحماية ، ووفاة السلطان حسين كامل ، ونفى سعد زغلول ، وقيام الثورة ، ووفاة سعد ، وعيد الدستور ... الخ . فعن الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وما آل إليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وما دار فى خلدهم ، صور نجيب محفوظ التاجر أحمد عبد الجواد فى صورة رب الأسرة المستاء من اختفاء السلع ، وارتفاع أسعارها خلال سنوات الحرب ، والذى يلعن جنود الاحتلال الذين يسلبون الأهالى موارد رزقهم ، وفى نفس الوقت يذكرنا بما تردد من رغبة الأهالى على لسان أمينة فى عودة الخديو عباس إلى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمانية بعد أن عزله الانجليز ، حيث تقول « ربنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس » ، كما يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخلافة على لسان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد إلى البلاد أفندينا عباس مؤيدا من جيوش الخليفة .

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يسوقه على لسان ياسين من أن ينتصر الألمان وحلفاؤهم الأتراك حتى تسترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها ، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد إلى مصر .

وعن ثورة ١٩١٩ ونفى سعد زغلول وأصحابه إلى مالطة ، واستياء طبقات الشعب المصرى لذلك النفى ، ربط نجيب محفوظ بين هذا الحدث وبين نفى عرابى إلى سيلان فأوضح ما أصاب الناس من جزع وتساؤلهم « أيجرى نفس المصير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن إلى الأبد ، فتموت هذه الآمال الكبار ، وهى لا تزال فى مهد الأزهار » .

ونتيجة لهذا الاستياء تقوم الثورة ويشترك فيها فهمى ، مما أثار ردود فعل متباينة فى محيط الأسرة ، وتتطور المظاهرات إلى معارك بين الشعب والانجليز لتشترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة « يحيا الاستقلال ونموت ويحيا الوطن ، ويحيا سعد » .

ونتيجة لذلك يتصدى الانجليز لهذه المظاهرات بعنف ، ويسقط العديد من الشهداء ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شوارع القاهرة وحاراتها . فيشير نجيب محفوظ إلى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيته (١) ، وإلى ما أصاب أبنه ياسين فى المسجد ، ويفرج عن سعد ويتصافح الجميع ، ويتبادلون التهانى ، وتقوم المظاهرات التى عمت البلاد ابتهاجا بعودة سعد ، ثم يموت فهمى خلال هذه المظاهرات برصاصة طائشة ، بما يشير به الكاتب إلى تطور الأحداث والايحاء بانتكاسة الثورة والنهاية المنتظرة لها .

والملاحظ على موقف الطبقة البرجوازية المصرية من هذه الثورة أنه بالرغم من أن هذه الطبقة قد باركت الثورة ، فإنها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون أفرادها وقودا لها ، فالثورة عند أحمد عبد الجواد التاجر من الأشياء الجديرة بالاحترام ما دامت بعيدة عن أولاده وعن بيته ، أما إذا أشترك فيها أبناؤه انقلبت فى نظره إلى هوس ، وخروج على المألوف ، مما نتج عنه انضمام ابنه فهمى طالب الحقوق إلى حركة الجهاد الوطنى دون علم أبيه حتى لا يتعرض لثورته وغضبه .

كما يلاحظ أنه فى وصف نجيب محفوظ لموقف الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحدث من كل زواياه ، فليس أبطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ، كما أنهم ليسوا بمنصرفين عنها ، ففهمى ثائر على الانجليز ، يشارك فى الثورة بفكره ودمه ، وزينب فى الجانب الآخر تظهر غضبتها على سعد زغلول ، وبين الطرفين توجد درجات من الحماس .

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠ .

وهكذا صور نجيب محفوظ البيئة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تصويرا قال عنه الدكتور طه حسين : « لست أعرف قاصا صور الثورة المصرية فى أعقاب الحرب الأولى كما صورها نجيب محفوظ ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة ، وصورها متغلغلة فى أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا ، وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما ، وصورها بكل ما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم ، وجود الشيوخ بأموالهم ، وجود الأمهات والأخوات بأمانيهم ودعائهم ، وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم ، وغدرهم واستخفافهم بكل شيء ، وبكل انسان وبكل مكانة ، وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين » [١]. وتستكمل قصر الشوق ما توقفت عنده بين القصرين فتسرد تاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفاته ، فتظهر خديجة معبرة عن رأى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهية لعدلى وثروت ، فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ، ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار .

وبعد الضربة التى أصابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى أعقبت استقالة سعد ، فرمز إلى أن هذه الاستقالة قد أدت إلى أزمة دستورية ، وإلى ضياع السودان ، كما أشار إلى أن قتل السردار كان ضربة موجهة إلى وزارة سعد بهدف التخلص منها .

وعن فجيعة الأمة المصرية فى موت سعد زغلول ، عكس نجيب محفوظ صورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصوير كمال ، وهو يهتف من الأعماق لرجل الثورة والنفى والحرية .

---

(١) الجمهورية ، العدد ١١٤٣ فى ٦ فبراير ١٩٥٧ ، تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

وعن الروح الرجعية التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت أن تعصف بمكاسب الشعب فى جهاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة صدقى ، وتصريح وزير خارجية بريطانيا صمويل هور بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صلاحية أولهما للعمل ، ورفض الأمة للثانى عبر نجيب محفوظ فى السكرية عن أحاديث ومشاعر الناس حول هذا التصريح بقول أحدهم : « يجب أن يرد على هور وتصريحه المشئوم » وقول آخر : « ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا » .

ويقف نجيب محفوظ إلى جانب حرية الشعب ، وتطلعه إلى استكمال مقومات المجتمع الأمثل ، واحساسه بكيانه ، ويشاركه فى قضاياه فينتقد الحكام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة كمال الذى وعى حاجة الأمة إلى الثورة ضد طغيان هؤلاء الحكام واصفا محمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وتوفيق نسيم بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعموا أنهم أوصياء على شعب قاصر (١) .

وعن دور الأحزاب السياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لسان عدلى كريم رئيس تحرير مجلة الانسان الجديد فيقول : « الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن واحد . كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا ، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ، ومطهرها من الشوائب والخبائث كما أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة إلا أننا نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه

---

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ٧٨ .

وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .. ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فهى حركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا ، وهى ليست إلا صدى للعسكرية الألمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة ، وتقومان على الاستبداد ، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية . إن الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله » [١].

وفى تقديرنا أن نجيب محفوظ رمز باسم عدلى كريم إلى الكاتب التقدمى سلامة موسى خصوصا وأنه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء فى كتابات سلامة موسى المتبعثرة ، كما رمز بالانسان الجديد إلى المجلة التى أسسها سلامة موسى فى منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والمعنونة « المجلة الجديدة » .

أما عن تقييم الأحزاب الذى طرحه نجيب محفوظ فإننا نرى أنه كان لكل حزب دوره فى الحياة السياسية المصرية ، سواء أكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا ، وأنه إذا كان قد انحاز إلى حزب الوفد فإنه انحاز إلى المبادىء التى نادى بها الوفد أثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم [٢] . وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطنى بأنه كان حزبا تركيا رجعيا ، فمن الصعب أن ننكر إن هذا الحزب نجح فى توجيه جماهير الشعب المصرى فكريا ونفسيا فى فترة من أحلك الفترات التى مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وأنه هو الذى أضاء الطريق لقيام ثورة ١٩١٩ .

وعن تزوير الانتخابات فى مصر وسقوط النحاس ومكرم ، يعبر نجيب محفوظ عما يجيش فى صدر الشعب فى صورة كمال الذى يقف

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ٨٧ .
(٢) نفسه ، ص ١٤١ .

عند الديمقراطية والدستور فيقول : « انتخابات مزورة ، وكل شخص فى البلد يعلم أنها مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا ، وتحكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم وأن اللصوص سرقوا بالتالى مناصبهم وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادى الذى كفر بالمبادىء والخلق ، وآمن بالزيف والانتهازية (١) .

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفوظ دور اليساريين وأفكارهم حول الثورة الأبدية ، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل أزمة الحرية .

وهكذا يتضح تطور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية ، فبين القصرين مثلت حركة الانتماء إلى الحزب الوطنى ، وارهاصات تكوين الوفد ، وموقف فهمى البطولى إبان ثورة ١٩١٩ .

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتماء الوفدى والانتماء اليسارى ، بينما السكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد أن عجز حزب الوفد على أن يقدم حلولا للمشكلات الاجتماعية ، والطبقات الشعبية التى أزرته فى كفاحه الوطنى .

وهكذا رصدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صورة روائية أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال ، ومما يلاحظ على هذه الكتابات أن الثوريين كانوا على هامش الحياة السياسية لا فى قلبها ، وأنهم جميعا كانوا من صغار البرجوازيين الذين لم يتلقوا المبادىء الثورية عن طريق المعاناة الطبقية ، ولكن عن طريق قراءاتهم وثقافتهم العقلية ، كما يلاحظ أنه بالرغم من الأحداث التاريخية المعروفة التى نخرت بها الثلاثية فإنها أولا وقبل كل شىء كانت عملا روائيا لا

(١) نفسه ، ص ١٤٩ .

تاريخيا ، وإذا اعتمدنا عليها فى دراستنا للمجتمع القاهرى فى فترة ما بين الحربين فينبغى أن نتقبل ما بها بحرص وحذر شديدين خصوصا وأن العمل الروائى يعتمد على الخيال بجانب الواقع ، وقد يستلزم ذلك كما يذكر نجيب محفوظ استخدام عمليات المكر والحيل (١) . ومن هنا فإن من المغامرة غير العملية الاعتماد عليها ، وإن كان يمكن الاستئناس بها فى التعبير عن الجو النفسى السائد خلال هذه الفترة ، فنجيب محفوظ حين كتب الثلاثية لم يؤرخ لمصر ، وإنما كان دافعه الرغبة الفنية الخالصة التى يظللها أحيانا الخيال الواسع ، يضاف إلى ذلك أن علاقته بالتاريخ كانت علاقة الفنان ، وليست علاقة المفكر السياسى أو المؤرخ .

وبعد أن تعرضنا للثلاثية يطرح علينا سؤال نفسه وهو : ما هى الطبقة التى يمكن أن تنسب إليها كتابات نجيب محفوظ ؟ الواقع أن الآراء اختلفت حول هذا الموضوع ، وخرج النقاد بمقالات تحلل أدب نجيب محفوظ تحليلا طبقيا ، وانتهى بعضهم إلى أنه أديب البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة الصغيرة (٢) ومن أبرز هؤلاء النقاد كان الدكتور عبد العظيم أنيس الذى رأى أن تعبير نجيب محفوظ عن البرجوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا ، ومن هنا لقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها (٣) .

وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى ، وأديب الطبقة العاملة مشيرين فى ذلك إلى أن تصويره لواقع المجتمع المصرى من خلال الثلاثية كاد يقترب من الواقعية الاشتراكية ، حيث أن واقعية الثلاثية قد

---

(١) الآداب : يونيو ١٩٦٠ ، حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة .

(٢) الكاتب : العدد الثانى والعشرون ، فى يناير ١٩٦٣ ، مقال للدكتور غنيمى هلال تحت عنوان « أزمة الوعى السياسى فى قصة السمان والخريف .

(٣) الرسالة الجديدة : العدد التاسع والعشرون ، فى أغسطس ١٩٥٦ ، ص ٤٤ ، تحت عنوان : حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم أنيس .

حملت فى ثناياها بصيصا خافتا من الضوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعالجة الفساد القائم ، وهذا من أسس الأيديولوجية الاشتراكية التى ترى ضرورة فهم المستقبل والادراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه ، والايمان بامكانيات الانسان فى صنع مستقبله ، والوصول بنفسه وبمجتمعه إلى واقع أفضل يكفل للانسان حريته وكرامته (١) .

يضاف إلى ذلك أن رؤية نجيب محفوظ لمشكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبناء التركيبى للأحداث ، ودلل أصحاب هذا الرأى على صحة تسميتهم بما أدلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى أعدها له ضياء الدين بيبرس بأنه يؤمن بتحرير الانسان من الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه ، وأن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة وبتحقيق الديمقرطية بأشمل معانيها (٢) . كما دللوا بما أشار إليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشديد مع الماركسيين حيث قال : « لا أستطيع أن أعتبر نفسى ماركسيا رغم التعاطف الشديد » (٣) . يضاف إلى ذلك أنهم تمسكوا بما ذكرته إحدى شخصيات الثلاثية عن الثورة الأبدية والاضطهاد والآلام والعذاب وما شابه ذلك .

والواقع أن نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حياديا فى كتاباته ، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة ، ودليلنا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصدر عن واقعية اشتراكية حين قدم الحل الدينى متمثلا فى الفكر اليمينى الذى يمثله الاخوان المسلمون ، والمتجسد فى شخصية عبد المنعم ابراهيم شوكت كعلاج لتردى الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية حيث يرفض لقاء الظلام على

---

(١) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ : رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ١٩ .

(٢) الهلال : محاكمة نجيب محفوظ ، ص ٤١ .

(٣) نفسه .

بسطة السلم أو فوق السطوح مع بنت الجيران ويطلب أن يكون جزاء ذلك الرجم [١] ، كما يعتبر الالحاد هروبا من واجبات الانسان حيال ربه ونفسه والناس [٢] .

وفى نفس الوقت يعطى للحل الماركسى متمثلا فى أحمد ابراهيم السبيل لحل مشكلات المجتمع عن طريق الايمان بالعلم وبالانسانية وبالغد « وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد » . هذا بالاضافة إلى أن شخصياته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة ، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلف من ممثلى الفكرين الاسلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر اشارة إلى التتابع المرحلى للفكر الانسانى ، وهذا ما يرغب فيه نجيب محفوظ ، من أن يشير إلى أن لكل عصر فكره الخاص به ، وإن لم يميز أحد هذين الفكرين على الآخر [٣] .

وإذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بأنه أديب البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى وأديب الطبقة العاملة ، فلا ندرى هل الأديب لابد أن يكون كاتبا لطبقة معينة بذاتها ، أم أن أدبه ينبثق من كافة الطبقات ويعود إليها ، وهل من الضرورى وجود طبقة معينة يعبر فيها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقة يعبر الكاتب من خلالها .

لقد رفض نجيب محفوظ فكرة أنه يوجه انتاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته ، وأوضح أنه يصور النماذج التى تعيش معه أكثر [٤] ،

---

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ١٢٦ .
(٢) نفسه ، ص ١٢٩ .
(٣) جهاد عبد الجبار : المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٤) روز اليوسف : العدد ١٥٣١ ، فى ١٤ أكتوبر ١٩٥٧ ، تحت عنوان « الكاتب والطبقة التى يعبر عنها » .

وأنه إذا كانت له ايديولوچية فهى ليست فى عقله ، ولكنها فى قلبه لا يكتب عنها وإنما تعمل فى داخله [١] .

ومع كل ذلك فإننا نرى أن نجيب محفوظ بالرغم من حيادية كتاباته ، فإنه كان أقرب إلى التعبير عن الطبقة الوسطى ، وأقرب تفهما لقضايا هذه الطبقة من غيره من الكتاب لدرجة أنه استطاع أن يعبر بصورة واقعية صادقة عن أدق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل ، وكأنه قد عايش هذا المشاكل وتعايش معها ، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصويره للثلاثية حيث يقول : « وبالنسبة للثلاثية أعتقد أن فيها وجهة نظر مؤكدة » [٢] .

وهكذا اتبطت الثلاثية بالانسان المصرى ، وعبرت عما يعن له من مشاعر وأحاسيس ، كما أنها سايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتناسب مع مستوى القارىء المصرى حتى أصبحنا نرى فيها حياتنا ، وقصص كفاحنا وأزماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجة أن أدبه أصبح ظاهرة قومية نعتز بها كما اصبح ظاهرة عالمية تمثلت فى حصوله على جائزة نوبل .

* * * * *

---

(٢) نجيب محفوظ : أتحدث اليكم . بيروت .د.ت ، ص ٣٢ .

(٣) الكاتب : فى يناير ١٩٦٣ ، ص ١٨ ، لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دوارة تحت عنوان « رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ » .